

الفصل الخامس

ادخلوا يا يهود



لو لم أكن لنفسي، فمن يكون لها؟

حتى الآن لم يقم شعب إسرائيل بأى دور فعال فى عملية إعادة فتح الطريق التدرىجى إلى فلسطين. فى أول عودة لهم من النفى، حينما كانت بلاد فارس هى القوة التى أعادتهم، كان اليهود على استعداد للرجوع بمجرد أن أعطى الملك «قورش - Cyrus» كلمته، وقد عاد اليهود من بابل فى حشد من أربعين ألف يهودى مصطحبين معهم أوانيهم وأوعيتهم الفضية، وإبلهم وجيادهم وحميرهم. ولكن فى ذلك الوقت كان اليهود مجتمعين، واستمر ابتعادهم عن جبل صهيون لمدة خمسين عامًا فقط. أما هذه الفترة فلاغتراب اليهودى الثانى استمر لمدة ١٨٠٠ عام، وأصبح الشعب اليهودى مشتتًا فى كل مكان بالعالم، يبذلون مجهودًا مملًا ومفرطًا فقط من أجل البقاء على قيد الحياة، وألا يتم استيعابهم أو يفقدوا هويتهم. لقد نجحوا فى ذلك، وكانوا الشعب الوحيد فى تاريخ البشرية الذى حافظ على هويته بدون وطن قومى، ولكن الثمن كان مقيتًا. لقد نجحوا فى البقاء فقط عن طريق الانغلاق على أنفسهم ووضع أنفسهم فى قوقعة صلبة من المعتقدات الدينية، وقد ركزوا كل فكرهم فى الشئ الوحيد الذى استطاعوا إحضاره من بلدهم، وهو التراث أو القانون (الشرع اليهودى)، أو بمعنى آخر التوراة والتلمود. كل الناس يمكنهم أن

يحرثوا الأرض ويزرعوا ويبنوا ويحاربوا، ولكن مثل هذه الأشياء لا يستطيع أن يفعلها اليهود حيث إنهم ليس لديهم أرض. فأى أرض يزرعونها ويجنونها ويبنون عليها ويحاربون من أجلها؟ حينما انهار المعبد، فطبقًا للأسطورة، دخلت شظية من حجارته فى قلب كل يهودى، وهذا الحجر فى قلوبهم كان وطنهم الوحيد.

ولكن مع تغير الزمن لم يعد ذلك كافيًا. لقد قال «مازنى» رائد الحركة القومية فى القرن التاسع عشر: بدون وطن لا يوجد لديكم اسم أو صوت أو حقوق أو قبول وسط الشعوب الأخرى. ستكونون حثالة البشرية ومنبوذين بين الشعوب، كبنى إسماعيل. لقد كان يخاطب الإيطاليين وليس اليهود، ولكن صيحته كانت تعبر عن روح العصر، وبدأ اليهود يسمعونها أيضًا.

وحتى عام ١٨٠٠م، مرت القرون وظل اليهود فى حالة انتظار سلبى لحدوث معجزة خارقة للطبيعة فى شأنهم. لقد ظلت عبارة «الصلاة العام القادم فى أورشليم» تقال عام بعد عام منذ عام ٧٠ ميلادية، مثل قطرات الماء التى تسقط على الحجر. ولكن الآن بدأ بزوغ فكرة: أنه بأيديهم هم فقط وبعملهم الجاد سوف يمكن لإسرائيل أن تتخطى ذلك الشتات. لقد كتب المؤرخ «هنيرتش جراتيز» سنة ١٨٦٤م: «يجب أن يكون الشعب اليهودى هو مسيح أنفسهم». وكانت هناك قوى كثيرة تعمل فى القرن التاسع عشر من أجل إحداث هذه الفكرة الثورية.

يكاد يكون من المستحيل المحاولة للوصول إلى تقارير أو أبحاث حول عملية البعث الحديث للشعب اليهودى دون اليأس من التورط فى متاهات يهودية داخلية وسياسات خارجية أوروبية. لقد نقلت أوروبا اليهود إلى فترة «التنوير» والتحرير، وذلك على أثر السقطة الأوروبية بسبب الثورة الفرنسية، ولكنها نقلتهم أيضاً إلى فترة من الصراع الدينى والاجتماعى الذى مزق الديانة اليهودية التى طالما تشبثوا بها خلال قرون الشتات، وأدى ذلك الصراع إلى أنهم أصبحوا تائهين للأبد فى المعركة الجديدة من أجل الحرية القومية وأخيراً من أجل الدولة. لقد كانت خلفية الأحداث هى تاريخ أوروبا تحت حكم نابليون، ثم رد الفعل على اختفاء نابليون، والمحاولة العابثة لـ «التحالف المقدس» من أجل الحد من الحكم الفردى وثورته ١٨٣٠ و١٨٤٨م، وظهرت الحركات القومية الليبرالية والاشتراكية وحركة «بسمارك» والحركة الألمانية الشاملة (Pan-Germanism) واضطربت روسيا فى المراحل الأخيرة للشيخوخة القيصرية. كل هذه القوى أثرت فى اليهود، مثل التشنجات والتقلصات اللتين تحدثهما آلام المخاض، وأدت بهم إلى عملية الولادة المتعثرة كأمة.

لقد بدأت العملية بحركة «التنوير» التى بدأها «موسى منديلسون - Moses Mendelssohn» فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر، والتى كسرت قوقعة الانغلاق الدينى اليهودى، وفتحت الطريق أمام اليهود للتعرف

على الثقافة الغربية والمشاركة فى الأحداث الغربية . لقد انكسر حكم التلمود والحاخامات ، وتم فتح النوافذ اليهودية التى أغلقت فى جميع أنحاء أوروبا . وبدأ اليهود يقرأون لـ «فولتير» و«روسو» و«جوته» و«كانت» . لقد تلت حركة الإصلاح عملية الإسقاط اليهودى للطقوس الدينية القديمة ومحاولة تكييف اليهودية مع العالم الحديث . لقد أصبح «التحرر المدنى» هو الهدف . لقد أقرت «الجمعية التشريعية الدستورية الفرنسية» فى عام ١٧٩١م حق اليهود كمواطنين بفرنسا، وأكده نابوليون فى كل مكان تحت سيادته . ولكن الرجعية ألغت ذلك الحق، وكان على اليهود فيما بعد الحرب من أجل ذلك الحق فى كل دولة على حدة . لقد نالوا «التحرير المدنى» فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر، ولو كان الأمر ناجحاً لانتهت اليهودية عند ذلك الحد . ولكنه لم يكن كذلك، وأثناء محاولة اليهود لاكتشاف عدم نجاح الأمر اكتشفوا القومية . لقد أصبحوا يدركون أن اليهودية تحتضر؛ وذلك بسبب التحجر فى قشرة جافة من الأسلوب الحبرى المبهم والمعقد من ناحية، وبسبب التحلل فى الهواء الطلق «للتنوير» الغربى من ناحية أخرى . وإذا كان مقدراً لليهودية البقاء، فإنها فى حاجة ماسة لتربة جديدة . لقد وفرت القومية هذه التربة، ومنذ ذلك الحين فقد أصبح التحرك تجاه فلسطين يتم ببطء وتردد وعدم رضا، وليس بدافع الحماس بل بدافع الضرورة . ولم تكن أبداً حركة واحدة تسير فى خط مستقيم ، بل كانت عبارة عن شظيات متناثرة لنزعات وجماعات

متناقضة، مثل الإصلاح ضد التقليد، القومية ضد الذوبان، الاثنان ضد الصهيونية، وعقب كل ذلك نباح الكلاب ضد السامية(*) .

وكانت الحركة السياسية المعادية للسامية وليدة القرن التاسع عشر. لقد نهضت مثل العنقاء السوداء من رماد الفتح النابوليوني، وكانت ألمانيا، ولا عجب في ذلك، هي مسرح الأحداث. وظل صوت «Hep! Hep!» يدوي عبر شوارع «هايدليبرج» و«فرانكفورت» عام ١٨١٩م تصاحبه عمليات الشغب، واستمر نهب البيوت اليهودية زمن حادثة دمشق وقوانين مايو ومذابح روسيا، واستمرت أيضًا خلال قضية «دريفوس» حتى محرقة هتلر. وكان ذلك الصوت دائمًا يؤدي إلى دفع اليهود، بعضهم إلى القومية وفلسطين، والبعض الآخر إلى حركات التهرب من الواقع والذوبان في الشعوب الأخرى.

وهذا الضغط هو ما أثبت أن ذلك التنوير والتحرير مجرد خداع. وبالرغم من روح الحماس التي غلبت على القرن التاسع عشر والإيمان الشديد بالتقدمية، إلا أن الحركة المعادية للسامية لم تختف. واعتقد المتدينون الأرثوذكس من قبل، أن عليهم فقط أن ينتظروا وقتًا كافيًا وسوف يظهر المسيح ويعيدهم بشكل إعجازي إلى جبل صهيون، واعتقد أنصار الذوبان أن عليهم فقط أن ينتظروا وقتًا كافيًا، ولو أنهم

(*) هذه ترجمة حرفية لما كتبه المؤلفة بالإنجليزية:

The baying of the hound of anti - semitism.

ظلوا هادئين ومهذبين ولا يزعجون أحداً، فلإن الحركة المعادية للسامية ستختفى فى سديم الحركة التقدمية وحب الإنسان لأخيه الإنسان. ولكن هذا لم يحدث إلى حد ما. فالحركة المعادية للسامية لم تتلاش أمام العصا السحرية للماركسية أو أمام الاشتراكية العالمية.

وجدَّ اليهود سعيًا للبحث عن حل فى العديد من الاتجاهات المختلفة، كافحوا من أجل أن يكونوا مواطنين عاديين فى أى دولة يعيشون فيها وأن يظلوا يهودًا فى نفس الوقت. وحاولوا إيجاد مخرج لإخوانهم المضطهدين فى الشرق يحفظ لهم فى نفس الوقت ذلك القدر من الحرية والحياة الكريمة التى وجدوها فى الغرب(*) . لقد أحدث ذلك الشد والجذب شقاقًا حزبيًا مأساويًا بين اليهود، لم يحدث منذ الأيام الأخيرة للمعبد حينما ظلت الأحزاب الدينية تحارب بعضها البعض، بينما سقطت المدينة على مرمى سمعهم. تعمقت الخلافات وتكاثرت الانشقاقات وتزايدت العداءات، مما أعاق الجهود نحو

(*) لم يحدث فى تاريخ الشرق الأوسط ولا تاريخ المسلمين اضطهاد لليهود، كما حدث فى أوروبا، فقد طردوا من إنجلترا، ومن إسبانيا، وتكررت الاعتداءات عليهم فى أوروبا كلها من روسيا حتى إنجلترا، وثار عليهم الشعب الروسى وأعمل فيهم الذبح فى نهاية القرن التاسع عشر، كذلك فعل هتلر، وقد ذكرت الكاتبة الكثير من ذلك فى كتابها، ولم تذكر حادثة قتل جماعى لليهود فى الشرق الأوسط، إلا ما كان من الرومان قبل الإسلام، وإلا ما حدث فى فلسطين ردًا على الاعتداءات الصهيونية فى القرن العشرين، والتى كان ضحايا الفلسطينيين فيها، دائمًا منذ بداية الغزو الصهيونى وحتى اليوم، أضعاف ضحايا اليهود.

مشروع الوطنية مثلما تعوق الوطن اليهودى الآن. ولكن ما زال نباح الكلب(*) يحافظ على بقاء الحركة المعادية للسامية. وحينما سمع «هيرتزل» ذلك النباح فى فرنسا المستنيرة عاد إلى بيته ليكتب «الدولة اليهودية» ويناشد الكونجرس الصهيونى أن يضع «مركب الدولة اليهودية فى طريقه». ولكن «موسيه هيس» كان قد سمعه فى دمشق قبل ذلك بخمسين عاماً.

لقد كان «هيس» يهودياً متحرراً مثل «هيرتزل» الذى جاء بعده. وكان «هيس» أحد الرواد القدامى للاشتراكية الألمانية الذين كانوا يعتبرون أنفسهم اشتراكيين أولاً ثم ألمانين ثانياً ويهوداً أخيراً، هذا إذا كانوا يعتبرون أنفسهم يهوداً أصلاً. وفجأة صدمته حادثة دمشق كما لو كانت لكمة غير متوقعة. لقد أظهرت الحادثة أن اليهود ما زالوا يسجنون ويعذبون، وأنهم مجتمع كامل يسلب وينتهك بسبب ادعاء مدسوس من خرافات القرون الوسطى، وألقت الحادثة بظلال سوداء على كل المجتمع اليهودى من نيويورك إلى أودسا. وكتب «هيس» بعد ذلك قائلًا: «ثم لاح لى لأول مرة وسط أنشطتى الاشتراكية أننى أنتمى إلى شعبى المنبوذين والمحترقين والمشتتين... وأننى أريد أن

(*) حتى اليوم، أى من ينتقد سياسة الصهاينة، أو سياسة إسرائيل، هو كلب ينبع. ويمكن للقارئ أن يطالع «المسألة اليهودية» للروائى الروسى العالمى ديستوفسكى، أو «اليهودى العالمى» هنرى فورد الأمريكى (مؤسس شركة فورد لصناعة السيارات) يقرأ عنهما أنه لم يشتك شعب فى العالم مثل اليهود.

أعبر عن مشاعري الوطنية اليهودية بصرخة أسي». ولكن الأسي لم يكفه، فقد كان يريد حلاً. وكان هناك حل وحيد. ويتلخص في عبارة «مازيني» التي لم تكن قد كُتبت بعد آنذاك، ولكنها لا مفر منها: «بدون وطن فأنتم حثالة البشرية»، إن التحرير مجرد سراب. وبصرف النظر عن مدى قسوة الحقيقة فعلينا أن نواجهها. في عام ١٨٦٢م نشر «هيس» كتابه «روما والقدس» والذي كان له عنوان فرعي هو «أحدث قضية قومية». وكتب فيه: «لقد حانت الساعة لإعادة الاستيطان على ضفاف الأردن. فقد كان وجود وطن أمراً ضرورياً». وكتب «هيس» أيضاً: «بواسطة اليهود يجب بالضرورة الحصول على استقلال قومي قبل التقدم السياسى والاجتماعى، وليس بواسطة أى شعب آخر، فالشعوب الأخرى، ولو كانت مقهورة فهى على الأقل تعيش على أراضيها. ووجود أرض قومية مشتركة هو شرط أساسى للاستقلال القومى اليهودى...».

ولكن «هيس» كان يعرف ما لم يخطر على بال أى من المتحمسين لـ «شافتسبرى»، وهو أن شعبه أبعد ما يكون عن كونهم مستعدين لذلك. ما زالت الجماهير اليهودية مسجونة خلف مصاريع أبواب الأحبار التى يجب فتحها بالقوة من الداخل. وكان «اليهود التقدميون يختبئون خلف آمال تافهة سرعان ما ستتبعثر بمجرد لكمة من الخلف»، وكان من الواضح أن «المشكلة الرئيسية لدى الحركة القومية

اليهودية هي . . . كيفية إيقاظ المشاعر الوطنية في قلوب يهودنا التقدميين؟ وكيفية تحرير الجماهير اليهودية بواسطة هذه الوطنية من تلك الشكلية الكثيية والمحبطة؟». فقط عندما يتحقق ذلك، فإن مشروع «استعادة الدولة اليهودية سوف يجدنا مستعدين له».

استمر «هيس» من هناك في رسم خطط لاحتلال فلسطين. وكان يأمل في مساعدة القوى العالمية في شراء الأرض المقدسة من الباب العالي المفلس، وكان يفكر في فرنسا بالتحديد لتكون القوة الوسيطة (حيث كان «هيس» يعيش آنذاك في فرنسا، وكان لويس نابوليون بالفعل يسعى وراء نفوذ له في سوريا). وكان «هيس» يتنبأ بمستعمرات يهودية «تتمد من مصر إلى القدس ومن الأردن إلى المتوسط».

وبينما كان هيس يعمل على تنفيذ حله، كان يهودى آخر من نوع مختلف عنه قد وصل إلى نفس النقطة بشكل مستقل، وهو الحبر هيرش كاليشر من ثورن بروسيا، وهو باحث يحترمه الناس من المدرسة القديمة، وقد أعلن مبدأ مساعدة الذات من منبره التلمودى. وكتب فى عام ١٨٦٠م «لا يجب أن يعتقد أحد بأن استعادة إسرائيل والمسيح ستحدث بمعجزة سماوية وأن المسيح سيعيد الإسرائيليين من التيه إلى إرثهم. إن الاستعادة ستتم بشكل طبيعى من خلال رغبة اليهود فى الاستقرار فى فلسطين ورغبة الأمم فى مساعدتهم».

وفى نفس العام، جمع مؤتمر من الأحرار وقادة المجتمع فى ثورن

للحث على تنشيط استعادة فلسطين . وبالرغم من التقدم المحسوس القليل، فقد كان سعى كاليشر لجلب صهيون بمثابة الخميرة فى العجين . وشاركه أحبار آخرون نفس الأسلوب تجاه العودة، ومن خلال تلاميذه وعلاقاته انتشرت أفكاره . لقد علمهم أن جهد اليهود على أرض فلسطين هو الوحيد القادر على استعادتها . وأراد أن يحمى جنود يهود المستوطنين اليهود . ولم يكن يثق بقدر كبير فى كرم القوى الغربية، وفضل مساعدة بنى جنسه .

وكان يرجو المساعدة من أبناء جنسه، فكتب رسائل إلى «مونتيفيور» وعائلة «روت شيلد» يحثهم على تمويل المجتمعات الاستعمارية اليهودية، وشراء الأراضى، ونقل المهاجرين وترسيخ اليهود الذين يعرفون الزراعة على قطع أرض حرة، وتعيين معلمين لتدريب الآخرين، وأخذ قروض حتى تصبح المستوطنات قائمة بذاتها ويمكنها الاعتماد على نفسها، وإنشاء نظام شرطة وحراسة عسكرية ومعهد تدريبي زراعى .

لقد تمت البداية على هذا النحو بواسطة «التحالف الإسرائيلى العالمى» الذى تأسس فى «پارىس» عام ١٨٦٠م . وكان ذلك التحالف الأول من نوعه، تلته بعد ذلك مؤسسات شبيهة فى أوروبا تعمل عل حماية ورفاهية اليهود . وكانت فلسفة التآلف بابوية وليست وطنية على النحو الذى طالب به «هيس» وبعده «هيرتزل»، فالوطنية كانت فكرة جديدة

آنذاك، أو على الأقل كانت فكرة ميتة منذ زمن ومن الصعب إحيائها، وسوف تأخذ وقتاً طويلاً للإمساك بها. أما فكرة الخيرية والإنسانية، أو بتعبير أدق مسؤولية المجتمع عن المحتاجين، فكانت دائماً تقليداً مستمراً لإسرائيل وقديماً جداً مثل القبائل. بدأ التحالف يعمل الآن فى اتجاه فلسطين. قام «مونتيغيور» الذى كان يعمل وحده بثلاث رحلات إلى فلسطين قبل إنشاء طرق السكة الحديد والبواخر، وكان مجموع الرحلات التى قام بها قبل وفاته سبع رحلات، آخرها فى سن التسعين. كان «مونتيغيور»، أو «أمير إسرائيل»، دائماً ما يتحرك فى أى وقت وفى أى مكان تحدث فيه محنة أو اضطهاد لمجتمع يهودى. فقد سافر فى ظروف كهذه إلى القسطنطينية فى سن التاسعة والسبعين، وإلى المغرب وإسبانيا فى سن الثمانين، وإلى موسكو فى سن الثامنة والثمانين. ولم ترهبه المسافة التى سيقطعها أو الكارثة التى سيتعامل معها أو الحشود المشاغبة التى سيقابلها، لم يرهبه الجليد أو الصحراء. وبصرف النظر عن عادات «مونتيغيور» المهيبة وشخصيته الوقورة، فبمفرده لم يستطع تحقيق إلا القليل من الأثر الدائم للحد من تلك الحوادث مثل حادثة دمشق، وأمثلة أخرى تكررت فى كل مكان وأيقظت الضمير الجماعى لدى اليهود المتحررين فى الغرب. ولكن هدف التحالف كان محدداً بالنسبة لفلسطين، وهو تقديم مأوى آمن لليهود المضطهدين.

أنشأ التحالف مدرسة تدريبية زراعية بالقرب من يافا سنة ١٨٧٠م.

وفى نفس الوقت بدأ تدفق بسيط من المستوطنين اليهود شيئاً فشيئاً من روسيا، والتي نشأت فيها المجتمعات الاستعمارية تحت تأثير كتاب متأثرين بأفكار كل من «هيس» و«كاليشر». وفى «فيينا» كانت الجريدة الناطقة باسم هذه الأصوات الجديدة هى جريدة «ها شاهاار - Ha Sha-har» (الفجر). وقام رئيس تحريرها «بيريز سمولينكسن» فى سنة ١٨٧٣م بنشر كتاب له بعنوان «الشعب الخالد» والذى كان له أثر عظيم بين يهود الشرق. ويسخر الكتاب من النظرية المدللة لدى أنصار الذوبان، وهى أن إسرائيل بقيت فقط كديانة، وأكد أن اليهود هم ناس أحياء. وظلت هذه العبارة فى الكتاب وهى «كلب حى خير من أسد ميت» منذ ذلك الحين تستخدم للتدليل على سعة الهوة بين القوميين والتمثيليين. وفى نفس العام كتب موسى ليلينبلوم فى صحيفة «ها شاهاار» «إعادة ميلاد الشعب اليهودى فى أرض أجداده» وقد رددت أصوات أخرى فى روسيا وبولندا وألمانيا والنمسا وفرنسا وإيطاليا نفس الموضوع فى كتاباتها. وبدأت الكتب والمقالات والصحائف المكتوبة بالعبرية تتوالد فى شرق أوروبا فى السبعينيات. لقد أشبعت هذه الكتابات العاطفة اليهودية الجدلية، ولكنها كانت موجهة أساساً لاستعمار فلسطين كأساس للانبعاث الروحى للديانة اليهودية.

لقد جعلت هذه الكتابات الناس يفكرون، ولكنها لم تجعلهم يتحركون. لقد فعل نباح الكلب (الحركة المعادية للسامية) ذلك، ولكنه الآن انقلب إلى صيحة حادة ونباح جماعى مثل ذلك النباح الذى

يسبق القتل . وفى ألمانيا فى أواخر السبعينيات ظهرت الحركة الألمانية الجدليلة المعادية للسامية بقوة فى سياسات الأحزاب والصحافة ، وأشيعت النظريات العلمية الزائفة التى يسر العقلية الألمانية الانغماس فيها . وأوضح «بسمارك» كيف يمكن استخدامها لصالح السياسة . وفى أسبوع عيد الفصح لعام ١٨٨١م فى روسيا ، أصبح الدرس محل الممارسة ، وبدأ عهد جديد من الحركة السياسية المعادية للسامية فى شكل سياسة قومية واعية تتبناها وتشجعها الدولة . وفى غضون ثلاثة أيام أصبحت روسيا الغربية من البحر الأسود حتى البلطيق كتلة من الرماد ؛ بسبب أنقاض البيوت اليهودية المتهدمة (على حد استخدام الكلمات التصويرية لـ «لوسيان وولف») . ومن «وارسو» إلى «كيبث» إلى «أوديسا» عبر مائة وستين قرية صغيرة ، تم شن أعمال همجية تصل إلى درجة الوحشية - ولم يعرف مثلها منذ العصور الوسطى - على اليهود ووصل صدها إلى العالم عن طريق التقارير المروعة للبعثات الدبلوماسية والصحافيين .

قوانين «نورنبيرج - Nurnberg» كان النموذج الأمثل الأصيل لها هو قوانين مايو ١٨٨٢م ، والتى صدرت على نحو متعمد لتجعل اليهود يخسرون ديارهم وموارد أرزاقهم ، وحطمت قرى يهودية بأكملها ، ودمرت الاقتصاد اليهودى المتقلقل أصلاً ، وقنتت تحت اسم «أوامر مؤقتة» مذبحه مستمرة .

وكان السبب وراء هذه الانفجارات نفس السبب الموجود لدى «النازية»، وهو استخدام اليهود في دورهم التقليدي ككبش فداء لخلق نوع من تحويل الانتباه عن أزمة قادمة في الطريق، وإزالة الغضب الشعبي من الطبقة الحاكمة.

ومع مرور سنتي ١٨٨١ - ١٨٨٢م تعلمت الغالبية العظمى من يهود روسيا ما أخذ يهود غرب أوروبا تقريباً مائة عام ليتعلموه، وهو أن التحرير سيكون وهمياً ما لم توجد وراءه كرامة دولة لتسانده. لقد أسرعوا إلى القومية، ليس لأنهم لم يحصلوا على التحرير أو يلزموا أنفسهم بالذوبان، بل لأنهم لم يتعلقوا بوهم، لم ينتابهم شبح «الولاء المزدوج»، فبعد تلك المذابح والأوامر العليا والعصابات الإجرامية، أى ولاء يمكن أن يكون لديهم تجاه روسيا؟

وكما أسفرت «حادثة دمشق» عن «هيس»، أسفرت مذابح ١٨٨١م عن كتيب بعنوان «التحرير الذاتى» لطبيب أوديسا الدكتور «ليو بنسكر». كان ينادى بنفس كلمات الرباى «هيلل» آخر معلم يهودى عظيم قبل سقوط المعبد. كان يقول: «إن لم أكن لنفسى فمن يكون لها؟». وكان «بنسكر» يصرخ أن اليهود يجب أن يحرروا أنفسهم، «علينا أن نعيد بناء أنفسنا كأمة على قيد الحياة». لظالما افتقد اليهود الرغبة فى أن يصبحوا أمة مثل افتقار الرجل المريض للشهية، ولكن يجب خلق هذه الرغبة.

بدون هذه الرغبة سيظل اليهود شبح شعب، وشبحاً لأمة ميتة يمشى حياً بين الأحياء. اليهودى هو الأجنبى الأبدى، فلكل الأجانب الآخرين بلد فى مكان. ولكن اليهود فقط ليس لديهم بلد، وبدونها سيظلون أجناب فى كل مكان. «يا له من دور وضع يقوم به شعب كانت له أمجاد يوماً ما!» لا فائدة إذن من الشكوى من الحركة المعادية للسامية، فإنها ستستمر طالما سيظل اليهودى شبحاً وغريباً. «هناك شىء غير طبيعى فى وجود شعب بلا أرض مثل وجود رجل بلا ظل».

لقد حث «بنسكر» الجمعيات اليهودية الموجودة لعمل هيئة تشريعية (كونجرس) قومية وشركة مالية لشراء الأراضى وتنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين وإعادة الاستيطان. وكان يؤمن بأن رواد الحركة يجب أن يكونوا من يهود الغرب الذين يملكون القوة والمال والمعرفة بأمور الحياة، رغم أنه لم يتوقع منهم أن يشاركوا فى الهجرة إلى فلسطين؛ لأنهم مرتاحون فى الأماكن التى يعيشون فيها وسيفضلون البقاء فيها. سوف يأتى تأييد جماهيرى للمشروع من روسيا وبولندا، ولكن لن يأتى رواد له من هناك، فلن البيئة لم تتمكن من إنتاج مثل هؤلاء الرواد.

إن الرواد الذين كانوا يتمناها «بنسكر» لم يكونوا مستعدين بعد، ولكن الشخصيات الأدنى منهم كانوا مؤثرين للغاية، وبينهم بدأت

مجهوداته ترى النور. لقد رتب لمؤتمر قريب من «كراكاو» ببولندا، وتم انعقاده يوم عيد ميلاد «مونتيفيور» المائة سنة ١٨٨٤م. وفشل المؤتمر في إحداث هيئة تشريعية قومية يهودية، ولكن تم إنشاء ما هو أقل من ذلك، وهو «جمعية للاستعمار في فلسطين» والتي تم تعيين «بنسكر» رئيساً لها. وعرفت الجمعية فيما بعد في مقرها الرئيسى باسم «لجنة أوديسا» وبدأت عملها الفعلى في جمع المستعدين للعودة إلى فلسطين. لقد كان العاملون بالجمعية يطلقون على أنفسهم «أحباء صهيون». وكانت اجتماعاتهم التي كانت تطاردها الشرطة تعقد على ضوء الشموع في القرى الصغيرة الموجودة عبر الحدود. وكان الطلبة يخوضون الطرقات الموحلة لتوزيع المنشورات. وأخيراً بدأت عملية الهجرة الجماعية. وقد ألفت مهمة بداية إحياء الأمة التي ظلت ميتة طويلاً، وأرض فلسطين التي كانت نصف ميتة، على عاتق مجموعات قليلة من المستوطنين الذين لم ينظفوا حقلاً أو يحرثوا أخدوداً أبداً في حياتهم.

ولم تكن هذه حركة قومية بعد. وكان «هيرتزل» ما زال في العشرينيات من عمره، شاباً أنيقاً من صالونات «فينا»، وكان يكتب كتابات رشيقة وتراوده فكرة المسرح. ولم يقرأ أبداً لـ «بنسكر»، واليهود المتحررون الآخرون الذين قرأوا له، استاءوا من فكرة الأمة والوطن، بل قاوموها. ويقول د. «أدولف جيلينيك» العالم اليهودى

المشهور بـ «قيينا» لـ «بنسكر» حينما زاره الأخير وعرض عليه الفكرة: «هذه مزحة . . . أنت مصاب بالحمى لا بد أنك تحتاج إلى دواء». لقد دون «جيلينيك» تلك المحادثة التي دارت بينهما.

يرد «بنسكر»: «إننى لا أدرى أى حل آخر».

ويبرر «جيلينيك» قائلاً: «وماذا عن التقدم، الحضارة؟! لن تظل روسيا رجعية كما هى للأبد!».

هذا ما أرادوا أن يؤمنوا به، وهو أن المعادة للسامية مجرد طور وستنهيه التقدمية فى النهاية، وسوف ترعى ضحاياه فى نفس الوقت. إذ لا توجد ضرورة لحل جذرى كما يعتقدون.

وجاءت المساعدة من الغرب، ولكن لم تأت قيادة. سيمول دوقات اليهود أى شىء فى المشروع عدا أى خطوة سياسية. وأراد البارون «هيرش» أن يوجه هجرة جماعية إلى الأرجنتين. وساعد البارون «إدموند دى روت شيلد»، والذي كان تقريباً وحيداً بين المنادين بثقافة غرب أوروبا، المستوطنات حديثة العهد فى فلسطين. وما كان يؤلمه أنه كان يعتبر شاذاً بينهم إن لم يكن شيئاً أسوأ من ذلك. لم يلق مشروع إحياء فلسطين فى ذلك الوقت حماساً لدى المجتمع اليهودى المتحرر. لقد كتب الرئيس «وايزمان» فيما بعد فى سيرته الذاتية «بوجود رجل واحد، فإن ذلك الأمر يعتبر مجرد عاطفة، وذلك الرجل هو «إدموند»، بارون «پاريس». ولو أن هناك دسة فقط من نوعية وقدرة

هذا الرجل لغيروا تاريخ فلسطين ولقضوا تمامًا على عوائق اليهود المناهضين للصهيونية، والمتردددين والمعارضين فى العالم غير اليهودى، ولكننا لم يكن لدينا مثل هؤلاء الرجال».

والآن علينا أن نتوقف عند الثمانينيات؛ لأن الانطلاق الحقيقى للحركة الصهيونية ينتمى إلى عصر آخر، وفى نفس الوقت، فقد كانت إنجلترا تتقدم ببطء نحو دورها المستقبلى كقوة وسيطة. لقد كان التحرير عملية عكسية؛ حيث إنه عرف اليهود بحضارة الغرب، وبدأ يعرف الغرب بالممثلين الجدد «لشعب الله القديم». فكانت رواية «ليسنج» مكتوبة على طراز صديقه «ميندلسون». وكانت ألحان عبرية لـ «بيرون» تركز على موضوع الافتقار المشثوم لوطن قومى، وكتبت قبل مجىء «هيس» بحوالى نصف قرن، وها هى أبيات منها:

«الحمامة البرية لها عشها، والثعلب له كهفه،

والبشر لهم بلادهم، وليس لإسرائيل إلا القبر!».

إن بيرون الذى مات أثناء الحرب من أجل الاستقلال اليونانى كان بطل الجيل الذى ترمد على طاغية «التحالف المقدس». لقد انتزع روح القومية من الهواء وحولها إلى أبيات شعرية. لقد كان «مازنى» يقرأ ثلاثة كتب وهو فى السجن، هم «تاكسيس» و«الكتاب المقدس» و«بيرون». لم يدق فى أى مكان آخر جرس الحرية بمثل ذلك الصوت العالى والواضح مثلما دق فى «تدمير سيناشريب» المعروفة بـ «ألحان

عبرية» فهي لم تكن مجرد ترجمة شعرية للحظات بطولية من العهد القديم. يبدو أن «بيرون» تشبع بروح الديانة اليهودية التي ما زالت على قيد الحياة، والتي كان يعبر عنها «ديزرائيلي» بفخر وعلى غير اليهود: «عش أنت على عقيدتك ولكنني سأموت على عقيدتي». ونفس الروح توجد في سطور «توم مور - Tom Moore» «يدق صوت الجرس العالي فوق بحر مصر المظلم! لقد انتصر يهوه! لقد أصبح شعبه حرًا!».

وقد وضع سكوت هذه الروح في شخصيته الروائية «ريبكا» التي هربت مع «إيفانهو» رغم أن «روينا» هي التي تزوجت الرجل في النهاية، إن «ريبكا» صارت الشعب التواق الذي تصوره روايات «ويفرلي» عندما قفزت إلى المتراس وتحدث النذل «بويس جيلرت» أن يخطو خطوة أخرى وحينما تنعى «ريبكا» خضوع واستكانة شعبها لقدره، وتأسف لأن «صوت البوق لم يعد يوقظ يهوذا» فإنها بذلك تعبر عن روح القومية التي شهداها جيل «سكوت» و«بيرون» والتي ستصل إلى اليهود العصريين في غضون عدة عقود لاحقة.

حينما وصلت هذه الروح إلى اليهود لاحقًا، وجدت لها صدى في انجلترا الفيكتورية وفي كل القارة. ففي فرنسا تحولت كتابات «دوماس فيس» والذي كان أشهر كاتب مسرحي في عصره في مواضيع الحب والسبل الذي يصيب النساء المشبوهات، كما في «غادة الكاميليا» إلى القومية اليهودية كما في «امرأة كلود». ويقول بطل هذه المسرحية التي

كتبت سنة ١٨٧٣م: «إن أرضنا وطن الأسلاف أصبحت ضرورية لنا مرة أخرى». لقد شعر «سكوت» أن من واجبه أن يشرح فى طبعات لاحقة للرواية أنه كان مضطراً لجعل «إيفانهو» يتزوج «روينا» وليست «رييكا»، وذلك من أجل أن يكون العمل قابلاً للتصديق تاريخياً. وفى انجلترا وبعد عام التفتت «جورج إيليوت» إلى أحدث قضية قومية كما كان يسميها «هيس»، وكتبت رواية «دانيال ديروندا» التى اتسمت بالموضوع ذى الطابع الخاص والذى يعبر عن انقسام فى الشخصية فى عام ١٨٧٦م. لم يكتشف بطل الرواية جذوره اليهودية إلا بعد أن أصبح فجأة نصيراً متحمساً للحركة القومية. ويقول البطل: «الفكرة التى تتنبأنى هى فكرة استعادة الوجود السياسى لشعبى، وجعلهم أمة مرة أخرى، ومنحهم مركزاً قومياً». ومثل كل روايات المتحمسين غير اليهود لقضية العودة، فإن «دانيال» لم يتردد لحظة فى المشاكل التى كانت تزعج اليهود الفعلين، مثل قضية الذوبان، والحركة المعادية للسامية، ومسألة اليهودية كدين أم جنسية؟ ومبدأ الكلب الحى أم الأسد الميت؟ إنهم لم يفكروا أبداً فى قضية إحياء الرغبة فى الاستقلال السياسى أو فى اقتصاديات مشروع العودة، والعملية المادية للرجوع إلى فلسطين، واستعادة الأرض، وخلق مجال للعيش وكسب الرزق هناك.

لقد تجاهلوا كل ذلك واندفعوا بخطى واسعة إلى فلسطين، المكان

الذى سوف تبرز منه إسرائيل الجديدة فى كامل نضجها مثل «أثينا». وفى الرواية ينصح «موردخاى» الذى كان ملهم «دانيال» قائلاً: «قوموا بإحياء المحور الرئيسى، وتطلعوا إلى أرض وسياسة... إلى حياة قومية لها صوتها بين الشعوب... استردوا الأرض وأسسوا قاعدة لها... سوف يستفيد العالم كما تستفيد إسرائيل... من وجود يهودية متوازنة بين الشرق والغرب كميثاق صلح بين الجانبين». وكانت «جورج إيليو» مثل «شافتسبرى» وأتباعه تسيطر عليها الفكرة التى تبدو تهكمية اليوم، وهى أن الدولة الجديدة سوف تكون عامل تهدة فى الشرق الأوسط، كما يقول «موردخاى» فى الرواية إنها سوف تكون: «أرض محايدة بالنسبة لعداوات الشرق مثل «بلجيكا» فى الغرب». فى الحقيقة يجب أن نأخذ فى الاعتبار الدين الذى فى عنق «جورج إيليو» لـ «شافتسبرى» رغم أنها لم تعترف بذلك. لقد كانت فى سنواتها المبكرة إنجيلية تبشيرية متحمسة، ولم تغب عن نظرها القضية الرئيسية لدى الرواد الإنجلييين. لقد جاءها الإلهام المباشر لكتابة هذه الرواية من زوجها «جورج لويس» الذى كان صديقاً حميماً لـ «موسى هيس» أثناء إقامته فى باريس.

وعلى العكس من شخصية «ريبيكا» فقد فشل «دانيال ديروندا». إنه مخلوق نبيل وخير إلى حد بعيد جداً بالنسبة للطباع البشرية المعتادة. وكان قرأ «جورج إيليو» أكثر اهتماماً بمغامرات «جويندولين» الرائع

المتعلقة بالزواج والذي كان يرفضه «دانيال» من أجل مصلحة الأرض المقدسة .

وبصفة عامة فإن الكتاب لم يؤثر في النقاد . فقد اعتبر السير «ليزلى سيتفن» هدف «دانيال» في استعادة الاستقلال السياسى لشعبه هدفاً «خيالياً» ، وأن اختيار المؤلفة للموضوع قد صدمه ؛ حيث إنه «يظهر شكلاً مختلفاً من روح الدعابة» . ولو أن الكتاب قد فشل من الناحية الأدبية ، فإنه على الرغم من ذلك كان له أثر كبير بالغ على الحركة القومية اليهودية . ربما بالغ «لوسيان وولف» فى تقديره حينما قال إن الأثر الذى أعطاه الكتاب للحركة كان «أقوى حافز مرت به الحركة منذ ظهور ساباتاي زيشى» ، وعندما تبنت الشاعرة الأمريكية إمالاتاروس قضية القومية اليهودية سنة ١٨٨٣م ، أشارت إليها على أنها الفكرة التى بلورتها «جورج إيليت» ، كما لو كانت «جورج إيليت» هى التى أنشأت فكرة القومية اليهودية .

بالرغم من أن شخصيتى «دانيال» و«موردخاى» ظلتا محللاً للسخرية إلا أن «جورج إيليت» كانت تأخذهما على محمل الجد . لقد طورت فكرتها التى لعبت دوراً فى تفكير «بلفور»(*) فى ضرورة رد

(*) لقد كان «بلفور» طالباً بين طلاب «جامعة ترينيتى كوليج» وقابل «جورج إيليت» أثناء زيارتها إلى «كمبريدج» بحثاً عن مادة لدراستها عن شخصية «ديروندا» وأصدقائه .

الدين المعنوى لليهود فى عنق المسيحيين . ولكن تجاهل اليهود آثار
اشمئزازها حتى كتبت إلى «هاريت بيتشر» تدعوه أن يجد أناساً
متعلمين «يعرفون أن المسيح كان يهودياً» أو يفترضون أنه كان يتحدث
اليونانية . «مسيحى كامل هو ثلاثة أرباع يهودى» قالت فى الرواية.

ولكنها لم تجد سوى أقلية من عامة الشعب الإنجليزى تعترف بذلك
الدين لليهود، وكانوا يرون اليهود «ناس متحجرون بطريقة شاذة . .
وكان يجب أن يكونوا شيئاً آخر» .

لقد تعمدت اختيار «دانيال ديروندا» فى مجهوداتها المستمرة لتحسين
صورة اليهود عند الشعب الإنجليزى، وركزت على الحقيقة الأساسية
أن «القومية» فقط يمكن أن تحل مشكلة الشتات .

وعلى حسب كلماتها «يحتاج العالم إلى أنبياء جدد من قبيل عزرا،
ومكاييين من نوع حديث، يستطيعون استغلال الظروف الخارجية، مع
التغلب على الخلافات الداخلية بين اليهود، واحتقار أعدائهم، ليوحدوا
أبصارهم (اليهود) فى اتجاه «أمة بين الأمم» مرة ثانية، منتصرين» .